تدبر سورة الحديد

د. رقيــة العلوانــــي

تدبر سورة الحديد

بسم اللّه الرحمن الرحيــم الحمد للّه حمد الشاكرين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

بين يدي السورة

حين تجفّ المآقي فلا تجود بدمعةٍ في جوف الليل من خشية اللّه، وحــين يقسو القلــب فينافس في قسوته وصلابتــه الحجر والحديد، حــين تأخذنا الدنيا ببهرجتهــا الفارغة بعيداً عــن مضمار السباق إلى الآخرة فنتخلّف عن السير حتى نغدو في آخر الرَكْب، تأتي هذه السورة العظيمة التي بين أيدينا لتنتشلنا من هذه الغفلة والبُعد عن اللّه عز وجل، إنها سورة الحديد.

تلك الســورة التي حوت في آياتها بعض ما نزل في المدينة وبعض مــا نــزل في مكة. المحــور والأساس الذي تدور حولــه كل الآيات من أولها إلى آخرها، معالجة مظاهر القسوة في القلوب.

ســورة الحديد هي دعــوة من اللّه عز وجل تحبُّبــاً لعباده للعودة إليــه، تحبُّباً من خالق كريم غني حميــد ولكنه رؤوف بعباده رحيم، يفتح أبواب التوبة والرحمة لعباده، يدعوهم، يتحبَّب إليهم أنْ هلُمّوا إلي!.

مهما ابتعدت بكم الدروب ومهمــا اختلفت الأحوال ومهما قست القلــوب، تبقى أبــواب التوبة – التي تفتح ســورة الحديد – مشرعة أمامنا جميعاً للعودة إلى الله عز وجل ذلاً وانكساراً بين يديه،خشوعاً وتسبيحاً، إذعانــاً لأمره ليخرج المؤمن من نفسه وماله لله عزّ وجل وحده لا شريك له.

ليخرج الإنسان من كل ما يمتلك تضحية وبذلاً وعطاءً لربٍّ كريم يرجــو أن يجد عنــده سبحانه وتعــالى كل ما ترك من متــاع الدنيا والآخرة.

مقاصد السورة ومحاورها

هــذه السورة العظيمة تعيد القلوب لخالقهــا حين تتغلغل بآياتها في داخــل القلب لتسكن فيه، فيُضاء القلب و يسير الإنسان على نور وبصــيرة في الحياة، في الواقع الذي يعيش، في المجتمع، في الأسرة، في كل مــا حولــه ليصبح هــذا الإنسان المتحرِّك بأمــر الله سبحانه وتعــالى تسبيحــاً وإذعانــاً وخشوعاً لأمــره وتنفيذاً لمــا جاء في هذه السورة مصدر نور وإشعاع لكل من حوله.

كل مــن يقترب من هذا الإنسان المؤمــن، يصيبه من ذاك النور شــيء، يصيبه من ذلك الغيث شــيء، يصيبه من ذلك الخير الذي يفيض والعطاء الذي يشعّ من قلبه وروحه شيء.

هـذه السورة العظيمة تواصل بآياتهـا لتعود بالإنسان إلى خالقه من جديد فيبقى ذلك النور متواصلاً معه في مسيرته في الحياة ولا يفارقـه أبداً ولا حتـى بعد الممات ولا حتـى في عَرَصات يوم القيامة ولا حتى في مقام الصراط، تلك المواقف العظيمة المهولة التي تأخذ بالألباب وبالعقـول. يبقى النور مصاحباً لذلـك المؤمن ليسعى بين يديـه ويسعى مـن خلفه وعن يمينه وعن شمالـه حتى يجعل كل من حوله يطمع في أن يصل إليه شيء من ذلك النور.

سورة الحديد العظيمة تعالج مرض قسوة القلب، وتصلب الإيمان في شرايينه، الأمـر الذي يؤدي إلى تكلُّس معاني الخشوع والخضوع والإذعـان لله عز وجل في شرايينه بأساليب متعددة متنوعة، لتؤكد علـى أن مرض القسوة، الذي يبدأ بغفلة بسيطة تزداد شيئاً فشيئاً، حتـى تسدّ على القلب منافذ الإدراك فيـه، فتتركه صلداً صلباً، قد يسوق صاحبه في داء النفاق الذي أدّى بالخروج إلى أمم سابقة من أهل الكتاب إلى الوقوع في الفسق والخروج عن أوامر الله عز وجل.

السـورة تقدم خطوات لكيفية عودة القلـب إلى خالقه سبحانه، عودتـه من القسوة إلى الخشوع واللين، من البخل والشُحّ إلى البذل والعطـاء، مـن الإختيـال والفخـر الواهـم إلى التواضـع والسكون والتضـرّع والانكسار بين يدي خالقه سبحانـه، من الركود والركون

والسلبيـة والعُزلـة عن النـاسـ إلى الواقع ليعالـج ويصحِّح ويصبح مصدر نورٍ وإشعاع لكل من حوله.

ليُحِـقّ الحــقّ في الواقــع ويُبطِل الباطــل ويُحقِّق دعــوة الأنبياء والرسَـل نُصــرةً لمبادئهم وقِيَمِهم في كل من حولــه وفي كل ما حوله ليصبح هذا الإنسان المؤمن وذاك القلب في معيّة الله عز وجل، تلك المعيّة الخاصة.

وأول خطوة على ذلك الطريق ليعود القلب من جديد إلى خالقه، يقــول المرء «سبحان الله» باللســان فحسب وإن كان ذلك جزء منها ولكنه تسبيح يجتذب القلب من نواحي الغفلة التي قد علته إلى عالم جديد، يصبح ذلك القلب الغافل مُسَبِّحاً مع كل من حوله.

ثــم تأتي الآيات بأسماء وصفات عظيمة من أسماء الله سبحانه وتعالى عزيز قوي لا يُغلَب، حكيم في أمره ومشيئه (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وهنا يبدأ القلب باستشعار معنى التسبيح يعود من مرحلة الغفلة عن معانيه إلى التوقف عندها.

ولكن لماذا يغفل القلب عن ذكر الله؟!.

تأتــي الإجابـات في السورة من خــلال تثبيت المعــاني الإيجابية التي تعالــج الغفلة وأولها استحضار عظمة الله سبحانه وسعة ملكه

وقدرته: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فكل ما يريده الإنسان، يجده عنـد خالقه سبحانه. (يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ (٤)) قدرة مطلقة. (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَـى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا) كل شيء، علم مُطلق، علم دقيق. (وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا).

ثم تأتي نهاية الآية بقوله سبحانه: (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ).

ثـم تعود من جديد: (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ)، (يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ).

هذه الآيات تكرس في القلب الغافل أن الله سبحانه محيط بكل شيء، علمه بتصرفاتنـا، بأفعالنا، بغفلتنا، بعودتنا، بكل شيء علم دقيق يسع كل شيء. فالقلب حين يغفل مجرد غفلة عن خالقه، حتى وأن تحرك اللسان، الله يعلم ذلك ويحيط به.

ولذلـك جاءت التأكيـدات في أكثر من موضع: (وهـو بكل شيء عليم) (بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ). آيات توقظ في القلب الشعـور بمراقبة الله عز وجل وعلمه بكل شيء. ثم تأتي تلك

الآيـة العظيمة: ﴿وَهُـوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَـا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ومعية اللّه عز وجل على نوعين:

المعيـة الأولى معية عامة فهو سبحانـه مع عباده بما يليق بجلال علمـه وبإحاطته واطلاعه ومراقبته لأعمالهم ومشاعرهم وخلجات نفوسهـم وخواطرهم ومـا يحدثون به أنفسهم ليـلاً أو نهاراً في كل شيء هذه هي المعية العامة.

المعيـة الثانيـة هـي معية خاصـة معيّـة اللّه مع عبـاده المؤمنين المخلصـين توفيقـاً وتأييداً ونصرة لهم، كما جـاء على لسان النبي صلى اللّه عليه وسلم يوم أن قال لصاحبه: "لا تحزن إن اللّه معنا" معيـة خاصـة تأييد حفظ توفيـق نصر فتح من اللّه عـز وجل معية خاصـة لا ينالهـا إلا المؤمـن، وهـي بعيدة عـن منال القلـب الغافل القاسي الذي اختط" طريقاً ودرباً له بعيداً عن خالقه سبحانه.

فهو يُحرَم من هذه المعية ولا يمكن أن ترجع وتعود المعية الخاصة لهـذا العبـد إلا إذا استشعر واستحضر وعاش المعيّة العامة الأولى النـابعـة مـن استحضـار الإنسـان لمعـاني مراقبـة اللّه سبحانه له واطلاعه على أفعاله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

هـذه حالة اليقظـة التي تبدأ بهـا سورة الحديـد توقظ القلوب وتعيدهـا من جديد إلى خالقها من خـلال تسبيح الإنسان لخالقه،

تسبيحا يعيد القلب البعيد عن الله عزّ وجل إلى خالقه، مستحضرا المعـاني والأسمـاء العظيمة الحسنـى التي جاء ذكرهـا في بدايات السـورة (لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لا يدين قلبي باستشعار ملك أحد من الناس مهما بلغ ملكه ومهما بلغ جاهه ومهما بلغت قوته أنه يملك من الأمر شيئاً، فلا يملك شيء الملك الحق لله الواحد الأحد.

ثـم جاءت (يُحْيِـي وَيُمِيـتُ) هل البشـر مهما بلغوا مـن القوة يملكون القدرة على الإحياء أو الإماتة!

هـل يملكون نفساً من أنفاس الحياة حتى يجري الإنسان ورائهم بعيداً عن الخالق سبحانه وتعالى؟!

التسبيح لم يعد مجرد كلمات باللسان، بل عبادة قلبية من أعظم أنواع العبادات، حين يسبِّح القلب قبل اللسان ليستحضر معاني هذه الأسماء العظيمة.

الآيات الست الأولى جاءت لتوقظ القلب ليسبّح التسبيح الحقيقي فيبـدأ بالعودة شيئاً فشيئاً للحيـاة الحقيقية، حياة الإيمان: (آمِنُوا بِـاللَّهِ وَرَسُولِهِ) إيمان حقيقـي، تصدّقه الجـوارح في واقع الحياة، السلـوك الـذي يتعامل به مـع الآخرين، الأخلاق، القيـم، المبادئ، المثل التي تكون وراء حركة الإنسان في واقع الحياة.

ثـم تأتي الآية: (وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُـم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيه) فالإنفاق تصديـق لمعاني الإيمان بـالله الذي له ملك السمـاوات والأرض في الواقـع. الإيمان يدفع الإنسان للعطاء والبـذل بكل أشكاله، فكل ما يمتلكـه الإنسان من مواهب، جوارح... مجرد عارية لتحقيق مهمته في الخلافة على هذه الأرض: (إني جاعل في الأرض خليفة).

مـا الذي يدفع بالإنسان بعيدا عـن الإيمان بالله ورسوله وتنفيذ أوامرهما التي جاءت في هذه السورة العظيمة؟!.

وهنا يحتاج الإنسان إلى مواجهة نفسه بصدق باحثا عن أسباب ابتعاده عن الله عز وجل، والنظر في عظيم خسارته والآية تضعه في عمق المواجهة: (وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)؟!.

ثـم يأتي العلاج ليأخذ بقلب الإنسان ويده إلى حيث النور والحق والهداية: (هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَات) فالعودة إلى كتاب الله القرآن من أعظم أسباب معالجة قسوة القلب وغفلته وبُعده عن الله سبحانه.

طريـق عودة الإنسان إلى خالقه يقتضـي عودته إلى القرآن وأن يجعـل له حظاً وعلاقـة وطيدة مع كتاب الله عز وجـل، فهو الكفيل بإنـارة الدرب وإخراجه من ظلمات الهـوى والضلال إلى نور الحق والهـدى: (هُوَ الَّـذِي يُنَزِّلُ عَلَـى عَبْدِهِ آيَـاتٍ بَيِّنَـاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ).

فالإنسان قد يمشي في طريق والطريق مظلم ويبحث عن بصيص نور فلا يجد، على الرغم من كل الأنوار التي صنعها الإنسان بحكم التقدم الحضاري الراهن.

ويبقى التساؤل هل يمكن لتلك الأنوار المصطنعة أن تضيء الظلمة التي توجد في قلب الإنسان حين يبتعد عن خالقه؟! تلك الظلمة التي تُلبس على الإنسان قرارته فلا يتمكن من التمييز بين الحق والباطل.

تبين سورة الحديد أن القرآن العظيم من أعظم وأهم مصادر النور في الحياة كما في الآخرة، فلا نور على وجه الحقيقة دون العودة الحقيقية إلى القرآن.

من هنا كان إنزال القرآن الكريم وتكفل الله سبحانه بحفظه من واسع رحمته سبحانه ورأفته بالإنسان، ليأخذ به إلى أسباب الهداية والنور متى أقبل الإنسان عليه بقلبه وروحه المتعطشة إلى النور.

ثم تعود الآيات من جديد لتواجه الإنسان بسلبياته وتثاقله عن عمل الخير والإنفاق والبذل في سبيل الله من خلال توجيه السؤال

إلى ذاته: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالشح والبخل والتمسك العاطفي بالمال من أعظم مسببات قسوة القلوب وبعدها عن خالقها.

كما أن الآيات تواجه الإنسان بحقيقة تتعلق بإيمانه بالله، فعلى قدر إيمانك بأن كل ما تمتلكه من الله سبحانه، يكون بذلك وعطاؤك في سبيله: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كل شيء بيد الله وكل شيء من الله وسيؤول إلى الله سبحانه وتعالى. إنها حقيقة قد تغيب عن الكثيرين خاصة في ظل العصر الذي نعيش وما اتسم به من مادية مفرطة وتكالب على أسباب المعيشة على حساب الاهتمام بأسباب حياة الروح.

فالمال والمواهب وكل ما وضعه الله سبحانه تحت تصرف الإنسان ودائع ستُستردّ في يوم من الأيام. لكن هناك فارق بين أن يستردها الله سبحانه وقد وظّفها الإنسان في سبل الخير بذلاً وعطاءً ونصرة لدعو الحق الذتي جاء بها كل الأنبياء، وبين أن يستردها وقد بخل بها صاحبها عن كل خير، فيحاسب على كسبها ومنعها.

من هنا توقظ سورة الحديد الهمة في القلوب لتتحرك للبذل بشتى أنواعه بالوقت بالجهد بالصحة بطعام بموهبة...وهي أعمال تنير للإنسان قلبه وحياته وآخرته.

ثـم تأتي الآيـات لتستنفر الهمم أكثر وتدفـع بالإنسان إلى المبـادرة للبـذل والعطـاء وعـدم تسويف الخـير، فالمبـادر بالخير السابق به لا يستوي عند الله في ميزانِ الجزاء مع غيره ممن تأخر عنه في العطاء: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ﴾.

وعلـى الرغم من أن لهذه الآيات أسباب نـزول تتعلق بمن أنفق مـن الصحابة رضوان الله عليهم قبل الفتح وقـت أن كان الإسلام لم يـزل غضّاً طرياًّ في مكة، فإن العـبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبـب. فالذين أنفقـوا وبذلوا وقدّموا من أموالهـم وأنفسهم قبل الفتح ليس كمن أنفق فيما بعده، وفي كل خير.

مـن هنـا فإن مـن أقبل على الله عـز وجل وهو في كامـل قوته ليس كمن أقبل عليه في حال الشدة والمرض والعجز والضعف، وعلى الإنسان اغتنام الفرص وعدم الوقوع في آفة التسويف: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

ثـم إن مدار الإنفاق ليس هو الكمّ بل هو الكيف والنوع، وإحضار القلب والنية والصدق مع الله في الرغبة بالعطاء. الأمر الذي يفتح كل أبواب العطاء أمام الإنسان قلّ أو كثر.

ثـم تواصل الآيات لتنزع من الأنفس شحها وتجعل العطاء قرضا بـين العبد وربه، الجزاء فيـه يضاعف أضعافـا مضاعفة: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

كل احسان ومعروف وصدقة يقدم الإنسان بيديه في الدنيا، سيجزى به نورا وخيرا في دنياه وآخرته. من هنا جاء الحديث عن النور مباشرة في الآيات التي تلي الحديث عن الإنفاق:

(يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

العمل من بذل وإنفاق وعطاء وخير ..،وكل ما يقدمه الإنسان، يجازيه به الرحمن بنور وهداية وبشارة: (ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) وفي المقابل تنتقل السورة إلى صورة مختلفة تماما عن أولئك المؤمنين. إنها صورة المنافق الذي وصلت به قسوة القلب والغفلة إلى حد الوقوع في النفاق.

النفاق الذي يجعل من الإيمان مسألة شكلية ظاهرية لا رصيد لها في القلب والسلوك وواقع الإنسان. وتأتي الآيات بموقفهم يوم القيامة، وهم يبحثون عن النور ويستجدون من المؤمنين شيئا من نور: (يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ من نُّورِكُمْ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ من قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ)

لقد شارك المنافقون في الظاهر المؤمنين في العديد من الأعمال الصالحة وتخلفوا عنهم بالإيمان الذي في قلوبهم والنية والصدق مع الله سبحانه. كانوا مع المؤمنين بأجسادهم ولكن قلوبهم لم توافق ظواهرهم حيث يفتنون أنفسهم و يتربصون و يرتابون و تغرهم الأماني و يغرهم بالله الغرور. وهذا التناقض والنفاق من أعظم أمراض القلوب، ولا ينفع يوم القيامة إلا القلب السليم قال تعالى: «يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». الشعراء:٨٩.

(فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ) انتهى الوقت!

فالمؤمن العاقل الحكيم يدرك تماماً أن ما يبذله في الدنيا من وقت من صحة من عمل من مال، إنما هو يفتدي نفسه به قبل فوات الأوان.

ولذا جاءت الآية التي تليها هذه الآية العظيمة (أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

عتاب مُحبَّب من خالق رءوف رحيم يعاتب عباده، ببعدهم عنه، وهو سبحانه غني عنهم وهم فقراء إليه. جاء في صحيح مسلم عن

عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه قال: " ما كان بين إسلامنا وبـين أن عاتبنـا اللّه بهذه الآيـة إلا أربعُ سنين" . وعنـد القرطبي: يقـول عبد اللّه ابن عباس رضي اللّه عنهما: "إن اللّه استبطأ قلوب المؤمنـين فعاتبهم على رأس ثـلاث عشرة سنة من نـزول القرآن" هـذا القول يفيد بأن الآيـة نزلت في المدينة،وسـواء أكانت الآية قد نزلت في مكة أو نزلت في المدينة، فإنها تخاطب المؤمنين في كل وقت وفي كل زمان.

وجـاء تحذير المولى جلّ وعلا وتهديده للقاسية قلوبهم حيث قال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الزمـر : ٢٢. ولـذا قـال مالك بن دينـار : ما ضُرب عبـدٌ بعقوبةٍ أعظم من قسوة القلب.

والآية تدفع بالإنسان إلى محاسبة نفسه وحضور قلبه وخشوعه حـال سماعه آيات اللّه. والخشوع هنا خشوع إذعان وتسليم وانقياد لأوامـر اللّه وآياته في واقع الحياة. فالخشوع ليس مجرد شعور قلبي ولكـن يبدأ بالقلـب ليغير ويعدّل من سلوك الإنسـان وأخلاقياته في واقع حياته.

ولذا جـاء التحذير من الوقـوع فيما وقع فيه أهـل الكتاب: (وَلَا يَكُونُـوا كَالَّذِيـنَ أُوتُـوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَـالَ عَلَيْهِمُ الأَمَـدُ فَقَسَتْ

قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ) الذين حوّلوا آيات الكتاب لمجرد آيات تُتلى، لم يذهبـوا إلى تطبيقها في واقع الحياة فكانت النتيجة قسوة القلوب.

كل من يبتعد عن تنفيذ أحكام وأوامر آيات الكتاب العظيم آيات القرآن في واقع الحياة ويحوّل القرآن لمجرد آيات تُتلى وتُقرأ ويحوّل الذكـر والتسبيح إلى مجرد تمتمـة باللسان دون تنفيـذ في الواقع، دون تغيـير في السلوك، دون تطبيق لدعوة الأنبياء من إحقاق الحق وإزهاق الباطل، يُعاقب بقسوة القلب.

إلا أن مـن رحمته سبحانه أنه لم يترك الباب مغلقاً أمام الذين استبـدت القسوة بقلوبهـم، فها هِي الآية تذكرهـم برأفته ورحمته بعبـاده سبحانه: (اعْلَمُـوا أَنَّ اللَّه يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

مهمـا بلغت القسوة بقلب الإنسان وابتعد عن الله سبحانه، عليه ألا ييأس مـن رحمته ولا يصاب بالقنوط، فالرب القادر على إحياء الأرض بعد موتها، قادر على إحياء قلوب البشر بعد غفلتها وقسوتها وموتهـا بالبعد عن الله وذكره. لكن على الإنسان العودة وطرق باب التوبـة والندم بصدق وعزم علـى تفريطه في جنب الله، فما أكرمه من رب! وما أرحمه من رب سبحانه وتعالى.

ثـم تأتي الآيات مرة أخرى إلى الحث علـى البذل والعطاء: (إِنَّ الْمُصَّدِّقِـينَ وَالْمُصَّدِّقَـاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًـا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ.

ولنـا أن نتساءل عن المقصد من الحديـث المتواصل عن الإنفاق والصدقة وعلاقة ذلك بمرض قسوة القلب!.

لا يمكن أن يخرج القلب من قسوته دون بذل أو عطاء لأن القسوة عقوبـة مـن الله عز وجـل يسلطها علـى القلوب الشحيحـة التي لا تعرف للعطاء درباً ولا معنى. القلوب التي تبخل وتضن حتى بالكلمة الطيبة حتى بالتبسـم في وجه الآخرين، أو بدعوة صادقة ورغبة في الخير وتمنيه للآخرين.

كمـا أن الإيمان والحـق لا يُنصران بالقلـوب الشحيحة، بل لابد للقلب أن يتعلم العطاء ويتمرن على البذل ويمارسه بصدق حتى يصل إلى مرحلـة بذل كل شيء لله سبحانـه: (وَالَّذِينَ آمَنُوا بِـاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاء عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ).

فالوصول إلى منزلة الصديقية العظيمة لابد له من بذل وعطاء وفعـل يصدّق الإيمان والخشوع الذي فاض بـه قلب المؤمن. فدعوة الأنبيـاء قامت على الصـدق والعدل والحق، والتطابـق بين أعمال القلوب والجوارح في الواقع.

ثم تأتي الآية التي تليها لتقف بالإنسان عند أسباب الشح المؤدية إلى قسـوة القلوب، حب الدنيا والركون إليهـا: (اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ).

الدنيا فانية زائلة، ومتاعها قليل، مثل النبات يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً حتى ينتهى، والآخرة هي الباقية وهي دار القرار.

قـال رسول الله صلـى الله عليه وسلـم: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا". فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذ؟ قال صلى الله عليه وسلم: "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُمْ الْوَهَنَ". فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ الله، وما الْوَهْنُ؟ قال صلى الله عليه وسلم: "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ" رواه أبو داود.

من هنا جاء الحث على السباق إلى الآخرة بقوله تعالى: (سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

السبــاق الحقيقــي هــو التسابــق إلى الخــيرات وبــذل المعروف والعطاء وإحقاق دعوة الأنبياء الداعية إلى الحق والعدل، والتكالب علـى الدنيا يكبل الإنسان ويقعد به عـن السير نحو مضمار السباق الأخــروي. فالعمر محدود والأجل محتوم والفرصة يسيرة محدودة وهي قصيرة وإن طالت أيامها.

وتنتقل الآيات لتنبه الإنسان إلى ضرورة اللحاق بركب المتسابقين وألا تعيـق حركته وسيره المصائب والمحن التـي يمر بها في الحياة: (مَـا أَصَابَ مِـن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُـمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).

أفــراح الدنيــا وأتراحها لا ينبغــي أن تستغرق اهتمــام الإنسان وتشغله عــن سيره نحو الآخرة. فالفرح الشديـد بإقبال الدنيا على الإنســان محض امتحان وابتلاء قــد يقوده نحو الاختيــال والفخر والإغترار كما أن الحزن والأسى الشديد على مافات ووقع من أمور، يعيق حركته والقيام بدوره على الأرض.

وكلا التوجهـين يقود إلى البخل وزيادة الحرص والتكالب على الدنيــا ولذلك جــاءت الآية التــي تليها: (الَّذِيـنَ يَبْخَلُـونَ وَيَأْمُرُونَ النَّـاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُـوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ). فالذي يرى

أن مــا أنعم اللّه به عليه وما فتح عليه من أموال الدنيا إنما جاء من لدن نفسه، يندفع نحو الاختيال والغرور والبخل والنكوص عن دعوة الأنبياء القائمة على العدل والحق.

وفي المقابـل هنــاك حقيقــة لا ينبغــي أن تغيب عــن الأذهان في خضم الانشغال بالدنيا، مهمة الإنسان ودوره في الأرض التي جاءت بتحديدهــا دعوة الرسل والأنبيــاء: (لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَـا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيـزٌ. وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُـوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَـدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُـونَ. ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِـم بِرُسُلِنَـا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْـنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَـاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُـوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّـةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِـمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَـقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

مهمة الإنسان وفـق دعوة الأنبياء تتمثل في إقامة العدل وتحقيق الحــق (ليقوم الناس بالقسط). ولا يمكن أن تُحقق الدعوة في واقع الحياة إلا بقوة معنوية ومادية. القوة المعنوية هي التي تحملها القلوب العائــدة إلى ربها عز وجل المسبِّحة لخالقها سبحانه وتعالى، والقوة

المادية هي التي جاء ذكرها في قوله عز وجل (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ).

ثم ختمت الآيات (وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) لتذكر المؤمنين بمعنى الاختبار والابتلاء في مواقفها ونصرتها للحق. فالله سبحانه وتعالى يحثهم في الآية على نصرة ما دعا إليه ورسله والله قوي عزيز. وفي المقابل فهناك دائما من يختار طريقا غير الحق (فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون).

وتوضح الآيات في ترابط فريد أن تحقيق دعوة الأنبياء ونصرتها لا يحدث من خلال العزلة عن المجتمع في صومعة والانقطاع عنه وإنما تنتصر بمكابدة أحوال الناس والمجتمع وتصحيح الخطأ، ولذا جاء النهي عن هذا المنحي الانعزالي في سياق الآيات: (وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

إلا أن الله سبحانه الرؤوف الرحيم الذي يكافئ بالإحسان إحساناً ما منع هؤلاء من أهل الكتاب من الرهبان من أن يوفيهم حقوقهم ولذا قال: (فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ).

ثم تعود الآيات عوداً من جديد على بدء للحث على البذل ومواصلة العطاء: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. لِئَلا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ).

إنها دعوة لأن تصبح الحياة بكل ما فيها تصديقاً لإيمان القلب، حين تصبح الحياة وتصرفات وسلوك المؤمن في واقع الحياة تنفيذاً لأوامر الله، تطبيقاً وتفسيراً لآيات الكتاب العظيم، وحملاً لدعوة الأنبياء والرسل بالعدل والحق.

وحين تتحقق هذه الدعوة في واقع الحياة يشع نورها ويتحول صاحبها إلى إشعاع نور يضيء الطريق أمام الآخرين ببذله للخير وعطائه المتواصل لكل العالم: (ويجعل لكم نورا تمشون به). والعالم اليوم أحوج ما يكون إلى بصيص نور ولن يتحقق ذلك النور إلا بقلوب قد فاضت بنور الإيمان ودعوة الحق والعدل.

سورة الحديد بآياتها العظيمة وبكل ما جاء فيها من عِبَر ومواعظ تأخذ بالقلوب إلى الطريق الصحيح، وتعيدها إلى خالقها لتحيي فيها من جديد ما قد غاب بالغفلة والبعد والقسوة، فضلا من الله ونعمة.

رقم الناشر الدولي ISBN

٩٧٨-٩٩٩٠١-٧٣١-٣-٠

رقم الايداع وادارة المكتبات

٢٠١٢/١٠١١٧ دع